المقدمة

بسم الله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. يذكر الرماني في كتابه: «النكت في إعجاز القرآن» أن البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وهو بذلك يوافق الراغب الأصفهاني حيث يرى أن البلاغة تقال على وجهين: أحدهما أن يكون الكلام بذاته بليغًا، بأن يجمع ثلاثة أوصاف، صوابه في موضوع لغته، ومطابقته للمعنى المقصود، وصدقه في نفسه. والثاني: أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له. ويخلص الرماني إلى أن أعلى طبقات البلاغة في الحسن هي بلاغة القرآن الكريم، وأن أعلى طبقات البلاغة خاصة في القرآن، ولا توجد في غيره من الكلام، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم عامة، وللعرب من باب أولى.

والسابق يحيلنا قطعا إلى تحديد موضوع الكتاب وإجراءاته البحثية، فهو بحث في دراسة بنية القص، وأطراف الاتصال في سورة يوسف عليه السلام، ومن الجائز في هذا الإطار، قبل الدخول إلى سورة يوسف بالتحليل والقراءة، أن نبرهن على أن الآلية المتبعة في هذا النحو، هي الآلية نفسها التي نظر بها بعض الدارسين إلى نماذج إبداعية حديثة، بيد أن هذه الإسهامات تبرهن دون أن تبالغ في استبدال معايير تقويم فن بمعايير تقويم فن آخر، وأن تحليل الصورة من المنظور اللغوي الجمالي التقليدي وحده، سوف يشهد على تقليدية النظر النقدي أمام منجزات الدراسات العربية المعاصرة، مع تأكيد القول بأن القرآن الكريم ، ليس بكتاب قصص، بل كتاب دعوة وتشريع، وإن وردت فيه بعض قصص الأمم السابقة، فإنما في سياق الدعوة إلى الإيمان والتوحيد. ومن هنا ينبغي أن يكون النظر إلى القصة القرآنية مختلفًا عن القصة الأدبية، إذ القصة القرآنية ليست للتذوق الأدبي أو للمتعة، بل هي فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها.

على ذلك لم يغفل البحث التفسير المقاصدي للآيات؛ حيث الإفادة من أقوال المفسرين وأسباب النزول وغيرها من علوم القرآن، ثم تحري سلوك الهيئة الاتصالية بين طرفي الحوار (المرسل والمتلقي)، وأخيرا رصد أماكن القوة الإنجازية المحمل بها خطاب كل من المرسل والمتلقي.

وللإفادة، يجدر بنا أن نذكر أن الكتاب مقسم إلى قسمين: القسم الأول، وفيه اهتمام بالدرس النظري، حيث اهتم الفصل الأول منه بتحرير المفاهيم والمصطلحات في ضوء تعريفات معاجم اللغة واللسانيات، أما الفصل الثاني فانصب اهتمامه على تحرير البناء الفني للقص، مستفيدًا من المبادئ العامة في تحليل النصوص عبر النظر في آليات القص وبنائه الفني:(الحوار - الحبكة - الزمان - المكان - الشخصيات) والوظيفة المرجعية لبنية القص في سورة يوسف، وتقسيم السورة إلى مشاهد بحسب البنية العليا للسورة ، وانتهى هذا الفصل بعرض مبدأ الاستلزام الحواري، ودوره في الكشف عن القدرات الدلالية المحملة بها آلية الحوار، وكذلك مبدأ التعاون الذي يجب أن يكون سائدًا بين المرسل والمتلقي، وعبر بحث آلية المرسل والمتلقي، وجد أن السورة تحتوي على أكثر من متكلم، وأكثر من مخاطب، يتناوب كل منهما موقع الآخر في تناسق وانسجام قصصي خلاب، عبر استراتيجية الحوار المتقنة التي تبدأ بفعل القول (قال) على سبيل الحكاية.

ثم اهتم الفصل الثالث بتجلية مضارب البيان، وروعة الأداء في المواقف الاتصالية التي جاء فيها سيدنا يوسف عليه السلام مرسلا ثم مستقبلا ثم مرسلا ثانيًا، ولم تغفل الإجراءات البحثية في هذا الفصل، تجلية كيف يكون الحوار مدعمًا بالدفاع والحجج والبراهين، وتوظيف الأساليب البلاغية، كذلك اهتم هذا الفصل بدور السياق في تقوية سلوك المرسل، وكيف يعد السياق معيارًا مهمًا لتحديد المعنى المراد من اللفظ.

ثم القسم الثاني من الكتاب، وهو الدراسة التطبيقية التي جاءت في ثلاثة فصول، اختص كل فصل بدراسة البنية الحوارية الخاصة بإحدى الشخصيات الرئيسة الموجودة في سورة يوسف عليه السلام، فجاء الفصل الأول مهتمًّا بدراسة خطاب سيدنا يوسف عليه السلام، الذي دار حوله جوهر الحكي والقص، والمواقف التي ورد فيها سيدنا يوسف مرسلًا مع امرأة العزيز، وسيدنا يعقوب، وإخوة يوسف عليه السلام، والملك، وأصحاب يوسف عليه السلام في السجن، وفتيانه، ويرصد لتحول المرسل إلى متلق في بعض المواقف، ودور بعض الآليات اللغوية في قوة الإنجاز مثل التكرار والحذف وغيرهما.

ثم جاء الفصل الثاني بعنوان سلوك الاتصال وقوته، وهو يرصد لحوار سيدنا يعقوب عليه السلام داخل السورة من افتتاحية السورة حتى نهايتها، وهذا الفصل يرصد لخطاب مرسل مفعم بالحكمة والتفويض، وبث القيم الإيمانية السمحة، والصبر على صروف الدهر وأحداثه. أما المتلقون لخطابه عليه السلام داخل السورة فسيدنا يوسف عليه السلام، ثم أبناء سيدنا يعقوب عليهم السلام.

ثم الفصل الثالث بعنوان التبادل الحواري، ووحدة عناصر القص، حيث رصد التبادل الحواري الواقع في خطاب خاص لمرسل ومتلق واحد، مع غلبة حديث النجوى، وهم أبناء سيدنا يعقوب عليهم السلام، وهذا المرسل يختص بحلقات اتصال هي: (سيدنا يوسف–سيدنا يعقوب – الأسرة - فتيان الملك) وتقاطعها داخل لحمة الخطاب محددا بوجود العناصر السابقة.

هذا ويعتبر الوقوف على خطاب الأطراف الثلاثة الفاعلة في جوهر القص (يوسف عليه السلام – يعقوب عليه السلام – أبناء يعقوب عليهم السلام) وقوفا على مستويات مختلفة للخطاب، فضلا عن شموليته لكافة أحداث السورة، بما يعتبر وقوفا على أغلب بنيات السورة بالنظر والتحليل، وفي هذا المقام يجدر بنا التأكيد على عدم وقوف البحث على بنيات حوارية أخرى داخل السورة،

ذلك أن أغلب هذه البنيات الحوارية، قد جاءت في صورة تقاطع مع البنيات الحوارية الخاصة بالشخصيات السابقة، وللتأكيد لم يقف البحث على جملة قضايا الخطاب داخل سورة يوسف عليه السلام حيث البلاغة القرآنية والتكوين والنسق والتحليل والتعليل، وهي علوم تلتقي بالتأكيد مع ما طرحه علماء القرآن في موروثنا والذين فرقوا بدقة بين المنطق الداخلي للآيات ومنطق الخطاب الثقافي والحضاري والديني العام المحيط بها، ومدى علاقته بالمنطق الداخلي للآيات.

إن علومًا مثل أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني ورسم القرآن ونقطة ومبهمات القرآن وأعلام القرآن وغريب القرآن والقراءات واللغات في القرآن وغيرها هي بحق كاشفة ومساندة حال التعاطي مع الآيات.

كذلك لم يسرف البحث في التأصيل النظري للكثير من القضايا سواء اللغوية أو البلاغية، واكتفى بتقديم التعريف البسيط للملغز فيها، وصولًا إلى جوهر التطبيق وهو الأهم ، مع الاستفادة من بعض إجراءات دراسات الأسلوب، ونظرية الاتصال اللغوي، وفي نهاية البحث جملة من النتائج المبثوثة داخل طياته صيغت بلغة مباشرة هادفة، تصلح أن تكون منطلقاً لبحوث ودراسات قادمة. والحمد لله رب العالمين.

القاهرة في يناير ٢٠١٦